مجلة علوم التربية

دورية مغربية فصلية متخصصة

العدد الثاني والخمسون - يونيو 2012

« من المشروع البيداغوجي إلى مشروع التعلم»
تحديد المسارات والتقاطعات

محمد بوصحابي
أستاذ التعليم الثانوي

تستمد بيداغوجيا المشروع قيمتها المضافة من خلال دعمها لروح البحث والتقصي والاستكشاف لدى المتعلم وتشجيعه على ممارسة استقلالية أكبر في التفكير والتحكم في مساره التكويني. وتتميز هذه البيداغوجيا أيضا بكونها تخطط للفعل التعليمي بنوع من المرونة والتدرج بحيث تكون الأنشطة التعلمية واضحة ومتنوعة، الشيء الذي يسمح لكل المتعلمين أن يتعلموا بناء على مؤهلاتهم الذاتية ومساراتهم الخاصة.

1- إدراج الموضوع ضمن مسار التعلم:

تختص بيداغوجيا المشروع بإبراز الموضوع ضمن مسار التعلم، إذ يتدخل المتعلم كمؤلف مرات قليلة وكفاعل مرات عديدة، لكن الصعوبة الكبرى التي تعترض المدرسين هي ضرورة مراعاة الفروق الفردية لتوفير التحفيزات والتعلمات ومتطلبات الجماعة، سيما أن بيداغوجيا المشروع وإعداد المشروع الشخصي للمتعلم يظهران مترابطان بعمق ومتداخلان بشكل كبير.

ويؤكد خبراء بيداغوجيا المشروع استحالة إنجاز مشروع دون موضوع، وهذا يقود إلى القول إن بيداغوجيا المشروع يتجاذبها تناقضان: محاولة التوفيق بين متطلبات صرامة التخطيط الموروثة عن الثقافة التكنولوجية وبيداغوجيا الأهداف من جهة، وإدراج الموضوع في صلب التعلمات من جهة أخرى.

في هذا الإطار قام عالم الاجتماع François Dubet[1] رفقة فريقه بإنجاز بحث في ثماني مؤسسات تربوية مختلفة تتوزع بين أحياء راقية وهامشية، وخلص إلى نتيجة مفادها أن المتعلمين يرددون كلمات مثل: أصالة - تحفيز- جزع- احتقار- تعاسة- شخصية- غياب

الحقوق، وهذا يعني في نظرهم:

- غياب الاهتمام بالفرد المتعلم: رغباته أذواقه، فرديته، إبداعه.

- غياب التفاوض والشفافية حول عناصر تبدو مهمة: البرنامج الدراسي- أشكال التقويم- صيغ العمل.

- الطابع المجحف للاختيار الذي يخلق فردا منفعلا.

- التناقض بين حرية كبيرة خارج الفصل وغياب الديمقراطية داخل الجدران من خلال ما تفرضه قسرا متطلبات التمثيلية (مجالس الأقسام تحديدا).

- اشتغال المؤسسة تحت ضغط العرض المدرسي ومدى جاذبيته، في حين يجب عليها أن تتموقع كفضاء سياسي يفاوض حول حقوق وواجبات الكل.

2- من وجهة نظر التعلمات:

لكي يتعلم أي فرد، يجب أن يتجذر هذا التعلم ضمن مشروع يثير اهتماماته ورغباته، في هذا السياق، نذكر بالنقط المفاتيح لبيداغوجيا المشروع التي تؤسس للتربية على الحرية واتخاذ القرار وهي كالآتي:

- تساهم بيداغوجيا المشروع في إيجاد حلول للمشاكل، ولا تقترح مسارا واضح المعالم وموحدا كليا؛

- تقبل بحتمية ارتكاب الأخطاء من أجل التقدم خطوات إلى الأمام؛

- تستدعي نظريات التعلم؛

- تمأسس التفاوض مع شركاء آخرين.

ومن ثم، فإن بيداغوجيا المشروع يمكن أن تكون نافذة مفتوحة داخل نظام مدرسي مشوب باللانظامية أو «الفوضى» علما أن وضع رغبات التلاميذ واهتمامتهم في الحسبان ليس بالأمر السهل أو اليسير، ونتيجة لذلك، تكتسي بيداغوجيات المشروع أحيانا طابع عروض أو صفقات مقدمة للمغفلين!

3- التفاوض حول المشروع: تسطير الأهداف والتفاوض حولها:

يكتشف المدرسون ذوو التجربة والكفاءة بعض الفوارق والعلامات التي عبرها يستطيعون التعامل مع تلاميذهم، إذ يمكنهم التفاوض معهم حول الأهداف مع مراعاة حاجياتهم الذاتية وكذلك الحاجيات الموضوعية للمؤسسة.

إن اللحظة الحاسمة في المشروع تتموضع ضمن تحديد ماهيته، إذ لا يتعلق الأمر بترقية مجموعة من المشاريع بعدد التلاميذ داخل الفصل، أو بالعدول عن محتويات البرامج أو الأهداف المحددة سلفا، أو بالإقرار والموافقة على الرغبات المماثلة لرغبات التلاميذ، بل يتعلق الأمر بالسعي نحو غايات محددة عن طريق تكييف الوسائل حسب القصد، وبمراعاة أهداف التعلم من جهة واهتمامات

التلاميذ من جهة أخرى وذلك في سياق تفاعلي.

بناء على ذلك يكون المدرس ملزما – بعد الشروع في إعداد خطوة من المشروع – بتدبير التعقيد والارتباك والشك والتردد، مع التحكم كليا في المنهجية وعدم المضي بمفرده في تحقيق المشروع في جميع تفاصيله «والجدير بالذكر أن التفاوض حول مشاريع تربوية هادفة يتطلب أفكارا واضحة وخطوات ديداكتيكية محددة ،فضلا عن تيسير الولوج إلى بنك المعلومات والمشاريع»[2]. إضافة إلى ضرورة امتلاك المدرس لمؤهلات وكفايات معينة لإنجاح التفاوض، من بينها: « القدرة التفاوضية – ممارسة المبدأ عن قناعة – معرفة جيدة بخطوات بناء المشاريع وبدينامية الجماعات– تنظيم وتنشيط المناقشات – تفعيل آليات التواصل»[3].

-4 - توضيح الأهداف:

لا ينخرط المتعلم في إرساء المشروع فقط، بل يمكن أن يتدخل أيضا في تحديد الأهداف لأن ما يشكل الأولوية تجاه مشروع ما هو انخراط المتعلم في تحديد أهدافه. ولا شك أن الرهان المنشود لحظة شرح الأهداف هو التفاوض حول أشكال التقويم وطرقه، مع ضمان انخراط المتعلمين المتعثرين أيضا.

إن بيداغوجيا المشروع يمكن أن تكون بيداغوجيا «العودة» إذ تتم العودة من حين لآخر لطرق الإشهاد التقليدية، كما يمكن للمدرس أن يتجاوز التفسير البسيط للأهداف من خلال اقتراح بنك من الأهداف على التلاميذ، حيث ينهل منها كل تلميذ حسب الكفايات المراد تحقيقها واكتسابها في إطار من التعاقد، حينئذ يستطيع التلميذ التفاوض حول:

- اختيار المشروع؛
- اختيار أهداف التعلم في إطار بيداغوجيا التعاقد.

وفي حالة إغفال أحد هذين العنصرين، فإن النتيجة ستكون لا محالة هي: غياب التحفيز.

-5 - تحليل الموارد والإكراهات والتفاوض حول الوسائل:

إن تمكين المتعلم من التفاوض حول الأهداف والوسائل لا يعني وضع المشروع تبعا لرغباته وأهوائه ! إن الانخراط لا يعني ترك المتعلمين يفعلون ما يشاءون أو ترسيخ النزعة التسامحية داخل الفصل! إذ لا يمكن بالقطع مفاوضة ومناقشة مشروع فردي مع كل تلميذ على حده ! إذ كيف سيكون الأمر مع ثلاثين تلميذا مثلا ؟! وفي المقابل ينبغي أن يتجه عمل المدرس نحو إمداد المتعلم بكل الوسائل المرتبطة بالوضعية حتى يتمكن في النهاية من تحليل الإكراهات والموارد وحتى يتسنى له قياس حدود إطار التفاوض والصعوبات المرتبطة باتخاذ القرار، فضلا عن منحه فرصة الوعي بالحقوق وبهوامش

المناورة والحركة وبفضاءات الحرية مقابل الوعي بالواجبات والإكراهات، وهذا يعني جعل المتعلم مسئولا ومستقلا بذاته.

وحتى يتمكن المدرس من خلق وضعية تفاوضية سليمة، من الأفضل إمداد التلاميذ بلائحة أهداف التكوين التي يجب متابعة تنفيذها مع استحضار بعض الإكراهات غير المتوقعة الملازمة للوضعية مثل: فترة المشروع - مدة الإنجاز، التغطية الاجتماعية - تأمينات عند الاقتضاء - الأغلفة المالية المرصودة - العدة المستعملة، إضافة إلى تحديد الموارد الأدنى الموضوعة رهن الإشارة.

في هذا الإطار يقترح برنامج «مونوغرافيا المقاولة » بعض اللحظات التفاوضية سواء على مستوى الأهداف أو الوسائل مع الحرص على ضمان انخراط التلاميذ ومشاركتهم بدءا بالفكرة الأولى للمشروع حتى صياغته النهائية. وفيما يلي أهم هذه اللحظات الأربع:

أ- تحديد السياق؛

ب- تحديد الأهداف الخاصة؛

ت-تقديم المشروع؛

ث-تحديد مراحل المشروع.

والملاحظ أن هذه اللحظات تيسر عملية التفاوض الحقيقي التي تتيح استدراج التلاميذ - انطلاقا من استحضار الموارد والإكراهات - إلى المساهمة في صنع الاختيارات والبدائل الممكنة.

خـــلاصـــة

لا يشك أحد في المكاسب التي راكمتها بيداغوجيا المشروع مساهمة منها في بناء مشروع التعلم القائم على أساس التعاون والتعاقد والعمل الجماعي والهادف إلى إرساء التعلم الذاتي، غير أن تحقيق هذا الرهان يقتضي اضطلاع المدرسين بمهام جديدة واكتسابهم لكفايات مستحدثة وإلمامهم بثقافة التفاوض التي لا تعني شيئا سوى إشراك المتعلم في بؤرة العملية التعليمية - التعلمية.

إحـــالات:

* اعتمدنا في كتابة هذا المقال على كتاب:

Pour une pédagogie du projet » Isabelle »
Bordallo- jean Paul Ginestet, Hachette livre, 1993, p : 113-121.

François Dubet : -
« les lycéens », point actuel- avril 1991.

2 - محمد بوصحابي: «مفهوم التفاوض من منظور بيداغوجيا المشروع»، مجلة علوم التربية، عدد 31، شتنبر 2006، ص 91.

3 - محمد حمود: «بيداغوجيا الكفايات»، إعداد وتعريب، مجموعة مدارس الملاك الأزرق، مطبعة النجاح الجديدة، ط 1، 2004، ص 96.